الفصل الثالث عشر

الدين والدولة بين أوربا المسيحية والشرق الإسلامى

obeikan.com

الدين والدولة
بين أوربا المسيحية والشرق الإسلامى

إذا تأملنا خريطة حوض البحر المتوسط أواخرَ العصور الوسطى، وبعد زوال الوجود العربى الإسلامى فى الأندلس، فإننا نجد حوض البحر المتوسط عبارة عن مستطيل، ضلعه الجنوبى عربى إسلامى، وضلعه الشمالى أوروبى مسيحى، وضلعه الشرقى إسلامى عربى تركى، وضلعه الغربى (فى أسبانيا والبرتغال) أوروبى مسيحى.

كانت أوربا ـ فى ذلك الوقت ـ تعيش ظروفاً مشابهة لظروف العرب والمسلمين.. كان للعرب والمسلمين خليفة أو سلطان يمثل السلطة الزمنية والدينية، إلا أن سلطته كانت مجرّد سلطة رمزية طقسيّة (يُنادى باسمه على المنابر وتُسك الدراهم والدنانير باسمه) بينما كانت السلطة الحقيقية فى أيدى حكام محليين، هم ـ عادة ـ رؤساء مجموعات الجنود، أو العصابات القبائلية، أو المجموعات المملوكية ذات العرق الواحد، أو الميلشيات الدينية والمذهبية.

وعلى الجانب الشمالى من المتوسط، فى أوربا المسيحية، كانت للبابوات نفس السلطة الرمزية الطقسية (بعد أن تقلّصت سلطاتهم أواخر العصور الوسطى).. بينما كانت السلطة الفعلية فى أيدى قطاع الطرق والقراصنة والبارونات ورؤساء الأسر القوية (وبعد فترة صار هؤلاء ملوكَ أوربا).

لم تكن معالم الدولة الوطنية **State** قد اتّضَحَتْ بعد، سواء فى أوربا أو الشرق الإسلامى، إذ كانت الدول لا تزال فى مرحلة جنينيّة، حيث كان

النفوذ البابوى فى الشمال يمثل كياناً هشاً لتجمع مسيحى عام، وكان الخليفة أو السلطان لدى العرب والمسلمين يمثّل نفس الأمر.

فى تحليل تطور الجماعات يُعتمد على تقسيم الحضارة إلى بنية عليا **Su-pra - Structure** ، (وهى البناء الثقافى للجماعة من دين وقانون وشرائع وأدب وفنون).. وبنية تحتية **Infra - St.** (وهى البناء الاقتصادى الإنتاجى للجماعة من زراعة ورعى وحِرف وصناعات...)... ومفهوم أنّ أيّة تطورات فى البنية الدنيا تؤدى إلى تأثيرات فى البنية العليا.

كانت الجماعات الأوربية فى ذلك الوقت تعمل فى الزراعة والرعى والحرف المتصلة بهما.. كذلك كانت المجتمعات العربية الإسلامية، لهذا فكلاًّ من المسيحيّة والإسلام جرى فهمهما وتفسيرهما بما يتّفق مع البُنَى التحتيّة لمجتمعات الرعى والزراعة.

والزراعة والرعى (وما يتصل بهما من حرف) أنماط إنتاج ذات صلة بطفولة الإنسان وسذاجته فى تفسير الظواهر.. فالراعى والفلاح يقفان عند حد «أن الله هو الذى يُسقط المطر» ويندر أن يفكرا فى البخر وتجمّع السحاب الذى يؤدى إلى سقوط المطر، كذلك فإن الراعى والفلاح ينظران إلى العشب وتوالد الحيوانات، وحتى توالد البشر، ينظران إلى كل ذلك ويُرجعونه إلى السلطة السماوية التى ترعى البشر، ويتوقفون عند ذلك، ولا يبحثون فى العلل التى خلف الظواهر.. ولا يسألون أنفسهم: «هل الله يفعل ذلك فى كل مرة أم وضع قانونا تسير عليه الكائنات؟».

وبدهى أن رجال الدين سيقولون لهم: «إن الله يفعل ذلك بيده فى كل مرة» حتى يُؤمنَ الرعاة والفلاحون ـ بسلطة الله التى تفعل كل شئ.. وكأنّ

الله يحرّك كل الكائنات بحبال مشدودة من الله إلى الأشياء.. لماذا يصرّ رجال الكهنوت على هذه الصورة لله؟ ولماذا لا يريحون رءوس الناس ورءوسهم، بأن الله يحرّك كل شئ بقوانين قد وضعها منذ الأزل؟ الإجابة مفهومة: «الله يحرك الأشياء كأنه لاعب دُمَى وعرائس بالحبال، ونحن ـ رجال الكهنوت ـ جند الله المشتركون معه فى التحريك.. ولو بدعائنا المقبول عند الله».

أما الصناعة وما يرتبط بها من تقدم علمى، فإنها تؤدى إلى «عقلانية» الإنسان فى نظرته للظواهر. يقول فردريك هيجل[١]: «كما أن الطفل الصغير لا يستطيع أن يعلل اضطراب أوراق الشجر، بفعل الهواء،.. فإن الرجل البدائى والساذج لا يستطيع أن يجدَ علّةً للمرض والكوارث والحاكم المستبدّ غير الجان والسحر الأسود وآلهة الشرّ، أو أى تفسير آخر يقدمه له كاهن التوتم أو كاهن الدين».

ومن المفيد أن نذكر أن هيجل وجد توازيا بين الدولة الاستبدادية، والبعد عن العقلانية وشيوع الخرافة والتفسير التوتمى السحرى للدين.. «ففى ظل استبداد مملكة بروسيا[٢] عاد راهب زار المنزل الذى وُلِد فيه السيد المسيح فى بيت لحم، فأقام بيتا ريفيّا بجوار أبروشيته، ثم ادعى أن بيت «يسوع» طار إلى هنا وفضّل هذا المكان.. وجمع الراهب كثيرا من أموال وذهب وحُلىّ المرضى والفقراء والبسطاء، الذين تمسّحوا ببيت يسوع رجاء

(١) فريدريك هيجل فيلسوف ألمانى كبير، ومحلل تاريخى عظيم. عن مؤلفه العظيم «العقل فى التاريخ» صادر - بيروت.

(٢) بروسيا - مملكة ألمانية عريقة، كانت تتميز باستبداد حكامها من آل «هابسبرج» وبروسيا نشأ فيها فلاسفة كثيرون، والسياسى صانع الوحدة الألمانية بسْمارك.

الشفاء أو طلباً لرحمة السماء.. كذلك وجد « هيجل » توازيا بين التخلف والاستبداد وشيوع ثقافة عامة مناهضة لمركز المرأة.. «إذ كانت تتردد على الألسنة أسئلة مثل: هل للمرأة روح كروح الرجل؟ هل المرأة الصالحة تدخل الجنة؟ وفى مثل هذه الجماعات يصير الدين موجودا بصورة كثيفة فى شئون الناس: فى ميلادهم، فى أسمائهم، فى زواجهم، فى تعليمهم، وفى طعامهم وشرابهم (كان الأب مكلّفا بترديد دعاء مسيحى قبل الطعام) وكذلك فإن الدين، ورجال الدين، موجودون بكثافة فى ساعة الوفاة».

وتقدّمت الحضارة فى الشاطئ الأوربى المسيحى من المتوسط، وظهرت الدولة المدنية، وتحوّلت الورش الصغيرة إلى مصانع.. وبدأ التنوير Renaissance (= إعادة الحياة)، وبدأ العلم الحديث: ظهرت نظريات جديدة فى الفيزياء والفلك والكيمياء.. وهكذا حدث تحوّل فى البنية التحتيّة الإنتاجيّة، الأمر الذى كان له صداه فى البُنَى العليا (الدين. الثقافة. القانون. الأدب. الفنون).. وأهم هذه التحوّلات العقلية ـ عند « هيجل »: الدولة المدنية والفصل بين الدين والدولة، وعودة الكنيسة إلى حجمها الطبيعى (كمؤسسة وطنية) وتوقفها إلى حد كبير عن « التلويح بالآخرة » وهو أمر يميل إليه رجال الدين حيث يُبرز سلطانهم الخطير على مصائر البسطاء». واسترجع الفكر الجديد ما سبق أن قاله المسيح، حين عُرِضَتْ عليه صورة قيصر على أحد وَجْهَيْ العملة: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله».

وبدهِى أن هناك أموراً « فكرّية » أخرى عجلت بالنهضة الفكرية الأوربية منها: المرتكز اليونانى الرومانى القائم على الحريّة والمنطقيّة، وقد عادت إليه أوربا من خلال العرب والمسلمين. ومنها أيضا أعلام التنوير المؤثرين فى أوربا

كابن رشد، والحسن بن الهيثم، والأب توماس أكويناس (أحد تلاميذ ابن رشد) ومن جاء بعد هؤلاء من أمثال روسّو. منتسكيو. وڤولتير.. ومنها ـ كذلك ـ الزلزال الفكرى الذى أحدثته الثورة الفرنسية.

انتشرت دولة العرب المسلمين فى جنوب المتوسط شرقا وغربا.. وقام بعبء الفتوح الإسلامية ـ منذ زمن طويل ـ العرب المؤمنون بالعصبيّة الإثنيـــة[1]، وتقدّمت الدولة العربية منذ القديم واتسعت وظلت البنى التحتية الإنتاجية، كما هى (رعويّة زراعية) ووافقها البناء العلوى الإسلامى وتفسيراته.. واستعانت الدولة الإسلامية فى أجهزتها الإدارية بميراث وقيادات أمم أخرى كالأمة الفارسية، صاحبة الحضارة التى كان العرب يطمحون إليها، كما استعانت بالآداب السلطانية الفارسية ... بل وتماثلت «بوقات وطبول» ملوك الفرس «ببوقات وطبول» سلاطين العرب والمسلمين.. (ونستخدم هنا إشارة المتنبى حين مدَح سيف الدولة الحمدانى وذمّ غيره من «البوقات والطبول»):

إذا كان بعضُ الناسِ سيفاً لدولةٍ فبعضهُم بوقاتٌ لها وطبولُ

وردّدَتْ.. «البوقات» العربية والإسلامية من خدم السلاطين، تلك المحفوظات الشهيرة من مثل قول «أردشير» الملك الفارسى القديم: «.. اعلموا أن المُلْك والدين أخوان توْأمان، لا قوام لأحدهما دون الآخر، لأن الدين «اس المُلك، ثم صار المُلك ـ بعد ذلك ـ حارس الدين، فلابد للمُلْك من أساس، ولابد للدين من حارس، لأنّ من لا حارس له ضائع، وما لا أساس

(١) محمد عابد الجابرى: العصبية والدولة عند ابن خلدون.

له مهدوم.. واعلموا أنه لن يجتمع رئيس سرّى للدين، ورئيس مُعلَن للمُلْك في مملكة واحدة، إلا انْتَزَعَ الرئيس في الدين ما في يد الرئيس في المُلك، لأن الدين «اس، والمُلْك عماد، وصاحب الأساس أولى من صاحب العماد».

وبدأ تفسير الإسلام ليناسب الظروف الواقعية البرجماتية (العملية):

١- «الناس سواسية كأسنان المشط». مبدأ إسلامى معلن.. لكنّ واقع العرب والمسلمين طبقى كغيرهم، لهذا رُتّب الناس كما كان شائعا: السلطان. الخاصة. العامة. ثم الأوباش أو الزُّعر (جمع أزعر وهو من لا خلاق له).

٢- «الخمر محرم» بل و«يُحَدّ شارب الخمر» ومع ذهذا، فما من خليفة أو سلطان (بعد الراشدين) إلا وشرب الخمر.. وكان يزيد بن معاوية (وهو خليفة) لا يكاد يفيق منها.. كلك فما من شاعر مسلم إلا وقد بدأ قصيدته بالخمر، حتى كعب بن زهير صاحب البردة الأولى، بدأ قصيدته بالخمر حتى في حضرة النبى «قصيدته المشهورة: «بانت سعادُ».. كذلك فإن الثعالبى [1] يؤكد على أحقية الملوك والسلاطين في التلذذ «بنعمة النبيذ». وكذلك ينصح «نظام المُلك» كلّ السلاطين المسلمين بضرورة تخصيص وقت «للجلوس مع الندماء» ترويحاً عن النفس.

٣- الحاكم أو السلطان «واحد من خلق الله».. إلا أن الأبواق المحيطة بالسلاطين تعتبر الحاكم «كائنا مفردا» في شخصه (الاسم. اللباس. المأكل. المشرب) وفي ظهوره (مجالس اللهو والحكم وصور الظهور أمام الرعيّة).. بل كثيراً ما حدث تشبيه الحاكم بالله، مدح أحدُ الشعراء

(١) الثعالبى: «آداب الملوك».

العزيزَ بالله الفاطمى، فبدأ قصيدته التى ضرب بها المثل: «أول القصيدة كُفر» فقال للعزيز:

ما شِئْتَ لا ما شاءتْ الأقدارُ		فاحكمْ فأنت الواحدُ القهارُ

يقول الشيخ على عبد الرازق فى «الإسلام وأصول الحكم» عن جوقة السلاطين «إذا ذكروا واحداً من الملوك أو السلاطين رفعوه فوق صف البشر، ووضعوه غيرَ بعيد عن مقام العزّة الإلهية، لأن الله «هو الذى يختار الخليفة، ويسوق إليه الخلافة والسلطان هو ظل الله فى الأرض».

٤- والسلطان «مُلزم بالعدل وحسن توزيع الثروة بين المسلمين».. إلا أن الجاحظ[١] (وهو من أوائل من كتبوا فى الآداب السلطانية) يقول: «وأوْلَى الأمور بأخلاق المُلك هو التفرّد، فلو أمكن أن يتفرّد المَلِك بالماء والهواء وألا يُشرِك فيهما أحداً فليفعل (؟!!!) فإن البهاء والعزّة فى التفرّد».

هذا الاتجاه فى النظر إلى السلطان اتجاه «شرقى» وشرقى هنا تعنى طبيعة التوجهات المؤلهة للحاكم، والمعطلة لتقدّم الجماعة، أو هى كما يقول هيجل: «روح عامة معوقة لسموّ الجماعة وتقدمها ومؤسسة لروح الاستبداد.. وأينما وُجِدَتْ هذه الروح فثمّة الشرق بصرف النظر عن الموقع الجغرافى».

ساند أبو حامد الغزالى، بالرغم من ادعائه للمثاليات، السلطان ودولته فى «التبر المسبوك».. والغريب أنّ صاحب «إحياء علوم الدين» لم يتطرق إلى الخلافة كمفهوم سياسى إسلامى.

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، والكلام هنا من كتابه «التاج فى أخلاق الملوك».

كذلك، نحى هذا المنحى ـ أيضا ـ ابن تيمية فى «السياسة الشرعية»، وكذلك فعل ابن قيمّ الجوزية (تلميذ ابن تيمية) فى «الطرق الحكمية»، بل إن معظم الفقهاء المسلمين قد مالوا إلى واقعية سياسية بعيدة عن مثاليات الدين.. وعزف الجميع للحاكم مقولات مريحة ومُبَرِرّة للاستبداد.. فلكل سلوك سياسى ـ أيا كان ـ سند شرعى، وإن تعذّر هذا السّند وجب خلقه (تلفيقه).. وهذه مهمة من مهام «الفقهاء المصاحبين للسلطان»... بل إنّ كثيرين من هؤلاء الفقهاء ضمّنوا مؤلفاتهم أبوابا بعنوان «الحيل الشرعية»؟!! ومن عجب أنهم غّطوْا على إهدارهم للمبادئ الإسلامية المعلنة، برفعهم من شأن المظاهر الشكلية للدين كاللحية والحجاب.. وهكذا ترسّخ على الشاطئ الجنوبى من المتوسط دولة السلطان.

تخلّصَتْ الجماعات البشرية المسيحية فى الشاطئ الشمالى من المتوسط. من أمير «مكيافيلّلى» وتحولت إلى نظم مدنية دستورية وإلى مبادئ مثل «سلطان الدولة» و «العقد الاجتماعى».

«ويظل المستبد الشرقى جاثماً على صدور الناس، مفوضاً وزيره الأكبر فى إخضاع الناس، بينما هو يستمتع كحاكم عام».. وتعبير مونتسكيو[١] هذا يذكرنا بقول نزار قبانى عن الحكام العرب: «الأنبياء الكاذبون يقرفصون على الشعوب ولا رسالة».

وسبق ابن خلدون «منتسكيو» فى مقدمته حيث قال: «لا تحتاج الدولة السلطانية فى بداية التأسيس إلى الكثير من الوظائف نظرا «للطابع البدوى»

(١) مونتسكيو: «روح القوانين».

الغالب على التأسيس، والذى يعتمد على العصبية والتعاضد.. وما أن تتلاشى جذوة العصبية الحاكمة، فإن الجماعة تدخل فى دور «عمران حضرى» يميل إلى الاستقرار ورقّة الحياة، ويبدأ السلطان فى «الانفراد بالمجد» وتنمو الحاشية السلطانية، وتظهر معها طائفة «الموالى والمُصْطَنعين».. ثم تدخل دولة السلطان فى مرحلة «الهرَم والاضمحلال» حيث تضيق أحوال الرعايا، ويتعذر استيفاء حقوق الحاشية فتتوجه إلى استلاب الرعايا.. ويظهر الخوارج وتبدأ تمردّات الأطراف».

وتظهر عبقرية ابن خلدون وهو يتحدث عن وظائف الحاشية السلطانية فيقول: «تكون لوظائف السيف أهمية قصوى فى بداية التأسيس.. ثم تسود وظائف القلم ... ثم تستعيد وظائف السيف مكانتها حيث يعتمد عليها السلطان فى محاولته الدفاع عن نفسه ومواجهة الخارجين عليه».

تجاوزَ الشاطئُ الشمالى من المتوسط «أمير» مكيافللى» ورسَّخَ مبدأ سلطان الدولة.. ووقفنا نحن ـ فى الشاطئ الجنوبى من المتوسط ـ مع ابن خلدون عاجزين أمام: «دولة السلطان» التى تمثل مرحلة «الهرَم والاضمحلال»...

ويحق لنا أن نسأل ـ بعد هذا العرض ـ إلى متى تعيش الجماعات العربية والإسلامية فى ظل «دولة السلطان» ومتى تتحوّل إلى «سلطان الدولة».. لم يحدث أنّ «تكوّن رأى عام موثر» فى أى بلد من البلاد العربية والإسلامية.. لماذا؟ لأنّ البشر فى هذه المناطق غير قادرين على «تكوين رأى عام» يخشاه الحاكم أو الدولة.. لأنّ البشر عبيد الدولة والسلطة القاهرة.. ولو استولت عليهم جماعات دينية (كما حدث فى إيران أو السودان) فإن هذه

الجماعات ترهب البشر بالسلطان السماوى (وهم يمثلونه) كما ترهبهم بالنار وتمنيّهم بالجنة.

كان البشر فى العصور الوسطى فى حال كحال البشر العرب والمسلمين الآن، إلا أنهم أسقطوا الدول المستبدّة، كما أسقطوا الإرهاب الدينى الذى كانت الكنيسة تمثله، وذلك كلّه حدث بتكوين « رأى عام » أعاد رجال الدين إلى كنائسهم، وصاغ العقيدة البروتستانتية الاحتجاجية الجديدة، وأدى إلى قيام الثورة الفرنسية، التى رفضت القديم (بما فيه النظام الملكى) وآمنت بالحرية والإخاء والمساواة بين البشر.

☆☆☆☆☆